ISSN E: 2709-8273
ISSN P:2709-8265
JOURNAL OF APPLIED LINGUISTICS AND TESOL
JALT

تمثّلات الحب النبيل في الأدب الأندلسي: «طوق الحمامة في الألفة والألّاف» لابن حزم الأندلسي أنموذجاً

"REPRESENTATIONS OF NOBLE LOVE IN ANDALUSIAN LITERATURE: «THE RING OF THE DOVE ON AFFECTION AND LOVERS» BY IBN HAZM AL-ANDALUSI AS A MODEL"

Usman Farooq
PhD Scholar, Arabic Language and Literature
AllamaIqbal Open University Islamabd
usmanfarooq710@gmail.com
Dr. Sami Ullah Zubairi
Assistant Professor, Arabic Language and Literature
Allama Iqbal Open University Islamabd
sami.zubairi@aiou.edu.pk

Abstract:
This paper investigates the representations of noble love (al-ḥubb al-ʿudhri) in Andalusian literary and intellectual heritage, using Ibn Hazm al-Andalusi's celebrated treatise Ṭawq al-Ḥamāmah fī al-Ulfa wa-l-Ālāf (The Ring of the Dove on Affection and Lovers) as a foundational model. Composed in response to a personal request from a close companion, the treatise transcends literary convention to offer a profound psychological, philosophical, and moral exploration of human love. Ibn Hazm approaches love not as a mere emotional or sensual experience, but as an ethical and spiritual journey shaped by sincerity, loyalty, and chastity.
The study highlights how Ibn Hazm's deeply religious worldview, rigorous intellectual background, and personal emotional experiences converge to produce a uniquely Andalusian perspective distinct from Eastern Arabic traditions and free from classical Arab idealization. His systematic division of the treatise into thirty chapters reflects analytical depth, while his refusal to borrow from pre-Islamic narratives affirms the cultural authenticity of his work. This research demonstrates that Ṭawq al-Ḥamāmah stands as a pioneering document in Arabic psychological literature and a vital testament to the refined emotional sensibilities of Andalusian civilization.

Key Words: Ibn Hazm al-Andalusi, Ṭawq al-Ḥamāmah, Noble Love, Andalusian Literature, Islamic Philosophy of Love, Emotional Psychology, Arabic Prose.

المقدمة

الحمد لله الذي جعل في قلوب عباده مودة ورحمة، وربط بين النفوس برباط المحبة والألفة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد عليه الصلوة والسلام الذي كان مثالًا للحب النبيل في سلوكه وأقواله، فأحبّ الخير للناس، وأحبّ لأمته ما يحبّ لنفسه، وعلى آله الطاهرين، وأصحابه الصادقين، ومن سار على نهجهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد،

إذا كانت الحضارات تقاس بعمق مشاعرها كما تقاس بصلابة عقولها، فإن الحضارة الأندلسية الإسلامية تقف في مصافّ أرقى التجارب الإنسانية التي جمعت بين رهافة الوجدان وصرامة البرهان. تلك الأرض، الواقعة على ضفاف الحنين والتاريخ، أنجبت من العقول ما أضاء جوانب الفقه والفلسفة، ومن القلوب ما صدح بأعذب أناشيد الحب والعفاف. وفي طليعة هذه الأسماء ابن حزم الأندلسي، العالم الموسوعي، الفقيه الظاهري، الأديب الشاعر، الذي جمع بين صلابة الحجة ورقّة الشعور، حتى ليكاد يجمع في شخصه بين حزم العالم ولين العاشق.

تعدّ رسالته الشهيرة "طوق الحمامة في الألفة والألّاف" علامة فارقة في الأدب العربي والإسلامي، لا لأنها تناولت موضوع الحب في صورته الوجدانية والإنسانية فحسب، بل لأنها قدّمته من خلال عدسة عقل فقيه، يرى في الحب طهارة الشعور لا فجور الهوى، وفي الوفاء عروة وثقى لا هوى عابرًا. فكان الكتاب مزيجًا بديعًا من التحليل النفسي والاجتماعي والوجداني، تطرّزه القصص الواقعية، والأمثلة الحية، والأشعار الرائقة.

إنّ هذا المقال، الموسوم بـ "تمثّلات الحب النبيل في الأدب الأندلس: «طوق الحمامة في الألفة والألّاف» لابن حزم الأندلسي أنموذجاً"، يسعى إلى استكشاف مفهوم الحب كما تجلّى في هذا النص الفريد، متتبعًا أبعاده الأخلاقية والفكرية والجمالية، ومتأملًا في كيفية تمثّله في سياق ثقافة أندلسية شهدت تلاقحًا بين التقاليد الإسلامية والأنماط الحضارية المتعددة.

ISSN E: 2709-8273
ISSN P:2709-8265
JOURNAL OF APPLIED LINGUISTICS AND TESOL
JALT

وسنعمد في هذا السياق إلى تحليل الحب بوصفه قيمة نبيلة لا مجرد انفعال عاطفي، ونقف عند أبعاد العفّة والتسامي التي اتسمت بها رؤية ابن حزم، في مقابل ما شاع في بعض الآداب من انحدار في المعاني وسقوط في الرغبة. فهل كان ابن حزم يحلّل الحب بعين الفقيه، أم يجسّده بقلب الشاعر؟ وهل كانت تجربته في "طوق الحمامة" نافذة إلى جوهر الحب الإنساني، أم صورة من صور الذكرى الأندلسية الضائعة؟

في هذه الورقة، نحاول أن نقدّم إجابة متأنّية على هذه الأسئلة، مستنيرين بالنص، ومتفاعلين مع ظلاله الحضارية والفكرية والوجدانية.

نبذة عن حياة الإمام ابن حزم الأندلسي:

هو الإمام علي بن حزم الأندلسي، أحد أعلام الإسلام الموسوعيين، فقيه، محدث، متكلم، مؤرخ، أديب، وشاعر لبيب. يعدّ من أكثر علماء الإسلام تصنيفًا بعد الإمام الطبري، ومن كبار مفاخر الأندلس في الفكر والمعرفة، وصاحب المدرسة الظاهرية التي عرفت بنصوصيتها الصارمة. تصدى لردود علمية حاسمة على الشيعة واليهود والنصارى، كما واجه آراء المتصوفة والخوارج بالنقد والتحليل.

ولد في قرطبة عام ٣٨٤هـ، ونشأ في بيت وجاهة وعلم، إذ كان والده وزيرًا موثوقًا لدى المنصور بن أبي عامر، يحظى بمكانة خاصة لدى الخلفاء، حتى أُسكن بجوار القصر الملكي. أما جده، خلف بن معدان، فقد دخل الأندلس في صحبة عبد الرحمن الداخل، مؤسس الدولة الأموية هناك. تقلّب ابن حزم في مناصب الوزارة في أكثر من عهد، فتولاها أولًا في بلنسية للمرتضى، ثم وقع في الأسر بعد الهزيمة سنة ٤٠٩هـ، ولمّا أطلق سراحه عاد إلى قرطبة، وولاّه الخليفة عبد الرحمن المستظهر وزارة الدولة في رمضان سنة ٤١٢هـ، غير أن المستظهر قتل بعد نحو شهر ونصف، فسجن ابن حزم، ثم عفي عنه لاحقًا. وعاد ليتقلّد الوزارة مجددًا في عهد هشام المعتد، في الفترة ما بين ٤١٨هـ إلى ٤٢٢هـ.

عرف بمذهبه الظاهري الذي أعاد تأصيله وتطويره، إذ رفض القياس والاجتهاد بالرأي، واعتبر أن الأدلة الشرعية لا تقوم إلا على الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، ولا مجال لما عدا ذلك من قياس أو استحسان أو مصالح مرسلة، فهي عنده من قبيل الظنون التي لا يبنى عليها الدين. وكان كثير من الباحثين يرى فيه صاحب مشروع شامل لإعادة تأسيس الفكر الإسلامي، من الأصول إلى الفروع.

الدقائق العلمية، والمسائل الفقهية، واللطائف الشعرية قلما تجتمع في صدرٍ واحد. فعلماء الدين إذا قالوا الشعر مستندين إلى قدرتهم البيانية، فإن شعرهم غالبًا ما يكون ثقيلاً عسير الهضم. لكن تراب قرطبة أنبت علي بن أحمد، المعروف بابن حزم، ليؤكد قول أبي نواس:

ليس من الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وقد وصفه المؤرّخ الأمريكي البارز فيليب حتى بأنه أعظم علماء الحضارة الإسلامية في الأندلس، وأندر مفكريها، بل من بين أكثر العقول خصبًا وأغزرهم إنتاجًا في العالم الإسلامي برمته. وكان والده وزيرًا عند المنصور الحاجب وابنه، مما أتاح لابن حزم فرصًا تعليمية متميزة. وقد تولى بنفسه الوزارة في عهد عبد الرحمن المستظهر وهشام المعتد. وكما يحدث مع كل من يسلك درب السياسة، نال حظه من الجاه والمنصب، كما ذاق مرارة النفي والسجن. وبعد انهيار الخلافة الأموية بالأندلس، انصرف إلى العلم والأدب، وهما ما كانت تطلبه روحه منذ البدء. وينقل ابن بشكوال عن القاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد قوله: "كان ابن حزم أعلم أهل الأندلس بالعلوم الإسلامية". وكان إلى جانب سعة علمه، فصيحًا بليغًا، شاعرًا، واسع الاطلاع على السير والتاريخ. أما ابنه أبو رافع الفضل، فيقول إن في حوزته ما يقرب من أربعمئة مجلد من تصنيفات والده بخط يده، تشتمل على نحو ثمانين ألف ورقة،[1] في فنون متعددة، منها الفقه والحديث والتاريخ والأنساب ومقارنة الأديان والمنطق، وغيرها. وهو ما يدل على تنوع واسع وعبقرية شاملة. وفي الفقه، بعد أن سلك مدة على مذهب الشافعي، أصبح من أبرز دعاة المذهب الظاهري، واشتهر به، حتى لقّب بـ "ابن حزم الظاهري". وكان شديد النقد للفقهاء السابقين، حتى شبّه لسانه بسيف الحجاج بن يوسف. وقد أدى هذا إلى أن يجتمع عليه فقهاء زمانه في التكفير والتضليل،[2] وأحرقوا كتبه، فكتب يقول:[3]

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي وينزل أن أنزل ويدفن في قبري

غير أن هذا الاضطهاد جعل الأمراء يتخلون عن نصرته، حتى اعتزل في ضيعته "منت ليشم"، وهناك قضى نحبه. لكن ما إن نضع جانبًا هذه الهيبة العلمية وتلك الجلبة الفقهية، حتى نكتشف في قلب ابن حزم إنسانًا مرهفًا رقيقًا، ينبض وجدانًا، كما

---

[1] ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك. كتاب الصلة. القاهرة: دار الكتب، ١٩٦٦م، ج٢، ص ٤١٦.

[2] ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. بيروت: دار صادر، بدون تاريخ، الجزء الثالث، صـ ١٥.

[3] ياقوت الحموي، معجم الأدباء، القاهرة: مطبوعات دار المأمون، ١٩٣٦م، ج ١٢، ص ٢٥٢ – ٢٥٣.

ISSN E: 2709-8273
ISSN P:2709-8265
JOURNAL OF APPLIED LINGUISTICS AND TESOL
JALT

تكشفه لنا رسالته الشهيرة "طوق الحمامة". هذه الرسالة ترجمت إلى الإنجليزية، والروسية، والفرنسية، والألمانية، دلالة على مكانتها وأهميتها. وفي شعر ابن حزم نجد ذوقًا طبيعيًا، وإحساسًا مرهفًا، وسلاسة رقيقة، تكاد تنفي أنه ذاته الفقيه الجريء في كتابه "المحلّى". وقد قال فيه أبو عبد الله الحميدي:
"ما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه".
فإن كان ابن حزم ظاهريًا في فقهه، فهو في عالم الشعر والحب يغور في أعمق أعماق الباطن.
وهذا التزاوج بين الظاهر والباطن نراه أيضًا عند ابن عربي، الذي وصفه ابن مسدي بقوله:
"كان ظاهري المذهب في العبادات، باطني النظر في الاعتقادات".
كان قوي الحجة، شديد العبارة، لا يتردد في توجيه النقد اللاذع لعلماء عصره، حتى وصفه ابن القيم بأنه صاحب لسان كـ"المنجنيق"، وقد أثار بذلك عليه خصومه، فحرّضوا عليه أمير إشبيلية، المعتضد بن عباد، الذي أمر بمصادرة أملاكه، وإحراق كتبه، ونفيه إلى مسقط رأسه منت ليشم في جنوب الأندلس، وهناك عاش في عزلة علمية حتى وفاته سنة ٤٥٦هـ.
رحل ابن حزم، لكنه ترك تراثًا فكريًا وأدبيًا خالدًا، لا سيما في كتابه الشهير "طوق الحمامة في الألفة والألّاف"، الذي يعدّ من أبدع ما كتب في أدب الحب في تراث الإسلام، وهو ما سنتناوله تفصيلًا في هذا المقال ضمن إطار تمثّلات الحب النبيل في الأدب الأندلسي.

تحليل عنوان الكتاب "طوق الحمامة" :

يتكوّن العنوان "طوق الحمامة في الألفة والآلاف" من خمسة عناصر، هي: "الطوق" و"الحمامة" و"في" و"الألفة" و"الآلاف"، وسنحاول شرح كل عنصر على حدة بالاعتماد على المعاجم اللغوية.

الطوق: هو الحليّ يجعل في العنق، وكلّ شيء استدار فهو طوق، كطوق الرّحى الذي يدير القطب ونحوه. والطوق واحد الأطواق. وقد قيل: "طوّقته فتطوّق"، أي ألبسته الطوق فلبسه. وقيل: الطوق ما استدار من الشيء، والجمع أطواق.

المطوّقة: هي الحمامة التي في عنقها طوق، والمطوّق من الحمام: ما كان له طوق.[4]

بإضافة هذا المعنى لكلمة "الطوق" إلى "الحمامة" – وهي طائر يتميز بصفات مخصوصة – ندرك أن الدلالة المفهومة عند العامة تشير إلى الألوان الزاهية التي تتلوّن بها أعناق بعض الحمام، وخاصة رئيس السرب.

في: حرف جر يدلّ على الظرفية المكانية، أي "الداخل".

الألفة: يقال: "ألف الشيء" إذا أحبّه واعتاده، و"ألف بعضه بعضًا" إذا اجتمع وانتظم. و"تآلف": انتظم وانضمّ. **والإلف:** الأليف، يقال: "حنّ بالألف إلى الإلف"، وجمع "أليف" على وزن: تبيع وتبايع، وأفيل وأفائل.[5]

أبرز المحاور في "طوق الحمامة"وأسلوب المؤلف :

إنه كتاب يفتخر به الأدب الأندلسي، فقد عبّر فيه ابن حزم عن مشاهداته وأفكاره بجرأة لافتة وشجاعة أدبية نادرة، دون أن يكترث بالنقد أو ردود الأفعال. وقد كتب هذا العمل على هيئة رسائل، ردًا على من طلب منه أن يكتب عن فلسفة الحب، فأرسلها من مدينة المريّة، وصاغها في ثلاثة وعشرين فصلًا، تناول في كل منها جانبًا من جوانب الحب وتجلياته في النفس الإنسانية.

تناول المؤلف في رسائله علامات الحب وأنواعه، وبيّن ما هو صادق منها وما هو كاذب، وناقش الحب من النظرة الأولى، والحب السري، والحب المعلن، وتحدّث عن علاقة الحب بالعداوة، وعن الوفاء والجفاء، ومتعة الفراق ولطافة الوصال، وعن الخطأ في الحب، وعن الإخلاص والطهارة فيه. وقد أبدع في توصيف هذه المعاني بعبارات رقيقة وأسلوب شفاف.
ورغم أن موضوع الكتاب هو الحب، إلا أنه يحتوي كذلك على تحليلات اجتماعية لحال المجتمع في ذلك العصر، حيث كانت الفتن الجنسية تعصف بخارج القصور، بينما كانت قصص الحب والجمال تسيطر على داخلها. كما يتضمن الكتاب رؤى دقيقة في طبائع البشر وسلوكهم.
من المميزات اللافتة في هذا الكتاب أنه يعكس جوانب من حياة المؤلف الشخصية، فضلًا عن أنه ليس مجرد نثر، بل يتضمّن عددًا من الأبيات الشعرية التي أدرجها ابن حزم لدعم مواقفه أو تصوير مشاعره.
أما من حيث الأسلوب، فامتاز بالبساطة والوضوح، وخلا من التكلّف والتصنّع، وقد استند ابن حزم في كثير من المواضع إلى نصوص من القرآن الكريم والحديث النبوي ومباحث فقهية، مما أضفى على كتابه طابعًا علميًا وروحيًا فريدًا. وقد زعم بعض المستشرقين، كـ ماسينيون و دروزي، أن مفهوم الحب العفيف لدى ابن حزم مستمد من التراث المسيحي، حيث توجد فيه دعوة إلى حياة العفة والتبتل. غير أن هذا الزعم لا يستند إلى دليل قوي، فمفهوم الحب الطاهر وجد منذ الجاهلية لدى شعراء كـ "العرقش الأكبر"، وتبلور في صدر الإسلام في نمط "الهوى العذري".

---

[4] ابن منظور، لسان العرب، ج ١٠، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، صـــ ٢٣١.

[5] المرجع السابق، جـــ ٩، صـــ ١١

ISSN E: 2709-8273
ISSN P:2709-8265
JOURNAL OF APPLIED LINGUISTICS AND TESOL
JALT

وتوجد شواهد على هذا النوع من الحب لدى بعض المتصوفة المسلمين أيضًا، مثل عبد الرحمن بن عمار، الذي كان يعرف بالزاهد لكثرة عبادته. وقد أحبّ امرأة تدعى "سلمة"، لكن حبه بقي في دائرة الخيال ولم يتعدّ حدود الطهر. وعندما عرضت عليه البوح بحبها، أجابها بقول الله تعالى: "الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين" ثم قال: "وأنا أكره أن تنقلب خلتنا عداوة يوم القيامة".

وهنا يظهر الفرق بين حب العامي وحب الفقيه؛ فالعامي قد تجرّه العاطفة إلى المعصية، أما الفقيه فيحمل همّ طاعته ومكانته، فيحفظ نفسه من الزلل.

دوافع تأليف "طوق الحمامة" :

أشار ابن حزم إلى أن تأليفه لكتاب "طوق الحمامة" جاء استجابة لرغبة صديق مقرّب، جمعته به ذكريات حميمة وأواصر صداقة متينة. فقد كان الاقتراح في بادئ الأمر نوعًا من التسلية، حيث طلب منه صديقه أن يكتب له رسالة عن الحب، يصف فيها أسبابه وأحواله وأغراضه، على نحو يتّسم بالصدق والواقعية، لا بالمبالغة أو الإنكار. غير أن من السذاجة الظن بأن دافع التأليف كان محصورًا في هذه الرغبة البسيطة، إذ إن ابن حزم، الفقيه المتأمل في تقلبات الزمان، "بنبأ الديار، والجلاء عن الأوطان، وتغير الزمان، ونكبات السلطات، وتغيّر الإخوان، وفساد الأحوال، وتبدل الأيام والأجداد والغربة في البلاد وذهاب المال والجاه والفكر في صيانة الأهل والولد، واليأس عن الرضوع إلى موضع الأهل ومدافعة الدهر وانتظار الأقدار".[6]

من هنا، تحوّل هذا الكتاب من مجرد تلبية لرغبة صديق إلى وسيلة لتسلية النفس وتعزيتها. فبالنسبة لابن حزم، لم يكن الحب مجرد تجربة شعورية، بل كان نافذة يطل منها على ماضٍ حافل بالعز والمجد، والراحة والثراء، والحياة الهادئة السعيدة. وهكذا، صارت "طوق الحمامة" سجلًّا نفسيًا واجتماعيًا يعبّر عن دقائق النفس الإنسانية وطبيعة العلاقات العاطفية والاجتماعية. وقد أدرك ابن حزم من خلال تجاربه ونماذجه أنه يمتلك القدرة على التحليل النفسي والاجتماعي، وأن الحديث عن الحب يتطلب شيئًا من التعمق والصراحة، وهما سمتان تميز بهما. لذا، وجد في نفسه استعدادًا لطرح تجربة وجدانية أندلسية صرفة، كما يفهم من قوله:

"ودعني من أخبار الأعراب والمتقدمين، فسبيلهم غير سبيلنا".[7]

وهذا التعبير، لاسيما في لفظة "سبيلنا"، يدل على أن ما يقدّمه ليس تجربة فردية خاصة، بل هو تمثيل صادق للذوق الأندلسي المتميز، في مقابل أدب المشارقة وتقليد الأعراب.

تقسيمات كتاب "طوق الحمامة" :

قسّم ابن حزم كتابه إلى ثلاثين بابًا، رتبها بعناية منهجية على النحو الآتي:

عشرة أبواب خصصت لأصول الحب وبداياته، مثل: الحب في المنام، والحب بالوصف، ومن أول نظرة، ثم التعريف بالقول، والإشارة بالعين، والمراسلة بالكتاب، والسفير. ويلاحظ في هذا الترتيب انتقال متدرج من المظاهر الخفية للحب إلى أشكاله الظاهرة والملموسة، مما يعكس وعيًا بمراحل تطوره وتعبيراته المختلفة. اثنا عشر بابًا تناول فيها أغراض الحب وصفاته، المحمود منها والمذموم، وكان يوازن في العرض بين كل صفة ونقيضها. فمثلًا، إذا تحدث عن كتمان السر، أعقبه بالكلام عن كشفه وإذاعته؛ وإذا ذكر الطاعة، قرنها بالمخالفة، وإذا أشاد بالوفاء، قابل ذلك بالغدر، وهكذا، حتى يرسم لوحة متكاملة لطبيعة الحب وأطواره النفسية.[8]

ستة أبواب عرض فيها الآفات التي تعترض الحب وتفسده، مثل العاذل، والرقيب، والواشي، ثم الهجر، والبين، والنسيان. وقد قابل ابن حزم بعض هذه الآفات بما يناقضها، كالعاذل مقابل الصديق المساعد، والهجر مقابل الوصل، بينما لم يقابل الأبواب الأخرى بضدّ مباشر.

أما خاتمة الكتاب، فكانت في بابين أخيرين جعلهما في قبح المعصية وفضل التعفف، ليبرز البعد الأخلاقي والديني للحب، فيجعله ضمن دائرة الفضيلة، ويضفي عليه طابعًا شرعيًا يربطه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهكذا، يتبين أن الرسالة محكمة البناء من حيث المنهج والتبويب، رغم بعض الملاحظات. فابن حزم وسّع مفهوم الحب ليشمل الصداقة والوفاء والعلاقات الاجتماعية، وقد أورد في سياقها بعض القصص المكشوفة – وهي قليلة – كما أنه أكثر من الاستشهاد بشعره، الذي لا يخلو من مبالغات، وربما لم يوافق أحيانًا طبيعة الحكاية المروية. كما أنه قد يتبسّط في شرح بعض الأمور البديهية التي لا تحتاج إلى تفصيل. ورغم هذه الهَنات، تبقى رسالة «طوق الحمامة» من أرقى ما كتب في أدب الحب،

---

[6] ابن حزم الأندلسي. رسائل ابن حزم الأندلسي. تحقيق: إحسان عباس. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨١. صـ ٤٧.

[7] ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م، صـ ١٤.

[8] نفس المرجع، صـ ٢٨٨

ISSN E: 2709-8273
ISSN P:2709-8265
JOURNAL OF APPLIED LINGUISTICS AND TESOL
JALT

وأصفى ما جادت به النفس الأندلسية. فهي مكتوبة بلغة حيّة بعيدة عن التكلّف، لا زخرفة فيها ولا صنعة، بخلاف ما نجده مثلًا في كتاب «التوابع والزوابع»، الذي يغلب عليه الطابع البلاغي والتصنع اللفظي. إن «طوق الحمامة» كتاب صادق في تأمله، رقيق في وصفه، عميق في فهمه للناس والحياة، وهو ما لا يحسنه كل كاتب، ولا سيما من كان معجبًا بنفسه، كابن الشهيد.[9]

هل طوق الحمامة أول كتاب في فلسفة الحب؟

عندما نشر كتاب "طوق الحمامة" في مدينة ليدن (هولندا) عام ١٩١٤م، أحدث ضجة كبيرة في الأوساط الأدبية الأوروبية، وادعى بعض النقاد الغربيين أنه أول كتاب يتناول فلسفة الحب بصورة منهجية، وأنه لم يسبق إليه لا في العربية ولا في غيرها من اللغات. لكن هذا الرأي غير دقيق، فقد سبقه في الأندلس محمد بن داود الظاهري بكتابه "الزهرة"، وهو عمل مفقود اليوم، غير أن اقتباسات منه لا تزال محفوظة في كتب الأدب، ومن الثابت أن ابن حزم اطّلع عليه. كما سبقه في هذا المضمار أيضًا رسائل "إخوان الصفا"، و"مصارع العشاق" لأبي بكر السراج، و"اعتلال القلوب" للخرائطي، وكلها أعمال سبقت "طوق الحمامة"، لكنها لم تحظ بما ناله كتاب ابن حزم من شهرة وقبول واسع. ويبدو أن شهرة "طوق الحمامة" تعود، جزئيًا على الأقل، إلى شخصية مؤلفه، إذ كان عالمًا كبيرًا، وفيلسوفًا ومؤرخًا مرموقًا، ترك وراءه نحو أربعمئة مؤلف. ومجيء كتاب عن الحب من شخصية علمية بهذا الحجم كان أمرًا مثيرًا للاهتمام، وعندما قرأه الناس وجدوا فيه تعبيرًا صادقًا عن مشاعرهم، فأقبلوا عليه بشغف، لأن الحب شعور فطري يعيش في كل قلب، فإذا وجد الإنسان من يعبّر عن خلجاته، انجذب إليه دون تردد.

التيمة الرئيسية في كتاب "طوق الحمامة" :

الحب هو التيمة الرئيسية، ولكن ليس الحب بمعناه السطحي، بل الحب بوصفه حالة إنسانية شاملة، تتداخل فيها المشاعر، والأخلاق، والسلوك، والدين، والعقل، والتجربة الاجتماعية. الحب عند المؤلف ليس نزوة، بل هو رسالة إنسانية راقية، ترفع من شأن الإنسان، وتكشف عن طهارته أو انحرافه، وتظهر جوهر أخلاقه، وتربي فيه أجمل الفضائل، إذا ما ضُبط بالشرع والتقوى. لذا فإن طوق الحمامة لا يعد مجرد كتاب أدبي، بل هو مرآة للروح والعقل والوجدان في آنٍ معًا، جعل من الحب تيمة جامعة لفهم الإنسان، في ضعفه وقوته، في شهوته وعفّته، في ألمه وسعادته.

تبدأ رسالته "طوق الحمامة في الألفة والألاف" برسالة بعث بها إليه صديق قديم من مدينة ألمرية، أثناء إقامته في شاطبة، يسأله فيها أن يكتب في موضوع الحب، ومفاهيمه، وأسبابه. ولما كان ابن حزم صاحب تدين عميق، فقد تردد أولًا بحجة أن الحياة قصيرة، وأولى بها الاشتغال بالآخرة. لكنه استجاب لطلب صديقه، مستندًا إلى بعض الأقوال والآثار، فأخرج "طوق الحمامة". وتعد هذه الرسالة تحليلًا دقيقًا في علم نفس الحب، استند فيها إلى مشاهداته وتجربته الذاتية. وقد خصص فصولًا مختلفة لمراحل الحب وأحواله وأنواعه، وذكر فيها قصصًا واقعية، أورد في ختامها شعره الخاص، فحفظ بذلك قدر وافر من ديوانه. وإن لم تكن الرسالة سيرة ذاتية بالكامل، فإن فيها من الصراحة والصدق ما يستحق الثناء، إذ لم يتردد في كشف بعض مواقفه الخاصة، مع تجنبه ذكر أسماء الآخرين. والنثر فيها، كما الشعر، دليل على ذوقه الأدبي وموهبته. وقد قال فيليب حتى بحق إن ابن حزم يبرز في هذه الرسالة فكرة "الحب العذري الطاهر"، أو ما يعرف بـ (Platonic Love).

وقد اختتمت الرسالة ببابين عن "قبح المعصية" و"فضل التعفف"، شدد فيهما على العفة والطهارة، وحذّر من عواقب الشهوة المفرطة بأسلوب الواعظ الفقيه. وفي موضع يناقش فيه قول البعض بأن "الوصال يقتل الشوق"، يعارض هذا الرأي، مستندًا إلى تجربته الخاصة، ويقول شعرًا [10]:

وددت بأنّ القلب شقّ بمدية وأدخلت فيه ثم أطبق في صدري
فأصبحت فيه لا تحلّين غيره إلى مقتضى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ما حييت، فإن أمت سكنت شغاف القلب في ظلم القبر

وفي موضع آخر يتساءل: لماذا أعطى الشعراء لصورة المحبوبة كل هذا الاهتمام؟ ثم يقول:[11]

أغار عليك من إدراك طرفي وأشفق أن يذيبك لمس كفي
فأمتنع اللقاء حذار هذا وأعتمد التلاقي حين أغفي
فروحي ان أنم بك ذو انفراد من الأعضاء مستتر ومخفي
ووصل الروح ألطف فيك وقعاً من الجسم المواصل الف ضعف

الوفاء عند ابن حزم: أخلاق الحب في أسمى درجاته

يرى ابن حزم أن الوفاء من أكرم الصفات والأخلاق، وخاصة في علاقات المحبة، وهو دليل قوي على طيب الأصل وشرف النفس. فالوفاء يعني الثبات على العهد، وترك مقابلة الأذى بأذى مماثل، والإمساك عن رد الإساءة قولًا أو فعلًا.

---

[9] المرجع السابق، صـــ ٢٨٩

[10] المرجع السابق، صـــ ٦٢– ٦٣

[11] المرجع السابق، صـــ ٩٨

ISSN E: 2709-8273
ISSN P:2709-8265
JOURNAL OF APPLIED LINGUISTICS AND TESOL
JALT

ويظهر الوفاء في أوضح صوره عند تمسك الإنسان بصحبة من يحب قدر المستطاع، مع رجاء الألفة بينهم، وأمل في عودة العلاقة حتى بعد الفرقة. أما من يخيب الأمل في رجوعه، أو يظهر منه ما يدل على عدم الوفاء، فذلك علامة على وقوع اليأس واستيلاء الغضب، وهنا يكون السلامة في الابتعاد عنه، والحذر من شره، والنجاة من أذاه. ومن تمام الوفاء أن يمنع الإنسان نفسه من الانتقام أو الانفعال حين يتذكر ما مضى من العشرة الطيبة، بل يحفظ العهد ويحنّ إلى ما كان، ولا ينسى المعروف حتى بعد انقضاء وقته. وهذه صفة عظيمة جداً، يجب التحلي بها في كل علاقة ومعاملة بين الناس، مهما كانت الظروف أو الأحوال.[12]

للوفاء ثلاث مراتب:

١. المرتبة الأولى: أن يفي الإنسان لمن يحبّه في حياته، وهذا من مكارم الأخلاق وأعلاها، خصوصًا في الحب، وهو أن لا يخون الحبيب أو يسيء إليه في غيابه، بل يتحمل لأجله ويصبر ويتحكم في أعصابه، ولا يرد الإساءة بإساءة.

٢. المرتبة الثانية: أن يظل الإنسان وفيًّا لمن خانه أو غدر به، فلا يقابل الغدر بغدر، بل يثبت على الوفاء رغم الألم والخيانة.

٣. المرتبة الثالثة (الأعلى): الوفاء للحبيب حتى بعد موته، وهو أن يستمر حبّ المحبوب والتعلق به بعد وفاته، ويظل أثره باقيًا في النفس، كما في قصة الجارية التي رفضت أن تتزوج بعد وفاة عبد الرحمن بن معاوية لأنها كانت قد بيعت له، فاختارت الوفاء له حتى الموت.[13]

نتائج البحث:

في ضوء ما تقدم، يتّضح أن كتاب "طوق الحمامة" لابن حزم الأندلسي لا يعد مجرد رسالة أدبية في موضوع الحب، بل يمثل وثيقة فكرية واجتماعية تعبّر عن رؤية متميزة للحب في سياق الحضارة الأندلسية. فقد تناول ابن حزم الحب بوصفه عاطفة إنسانية نبيلة، وربطه بمنظومة من القيم الأخلاقية مثل العفة والوفاء، رافضًا اختزاله في بعده الغريزي المحض، ومناصرًا لما يمكن وصفه بـ "الحب العذري" أو "الحب النبيل". وقد تميز طوق الحمامة بأسلوب فريد يجمع بين التحليل النفسي والاستبطان الذاتي، وبين التوثيق الأدبي والتجربة الشخصية، كما زاوج فيه المؤلف بين الفلسفة والعاطفة، والدين والحياة اليومية. ولا شك أن ابن حزم، بما امتلكه من ذكاء عاطفي وتكوين علمي راسخ، استطاع أن يقدم للعربية أول معالجة شاملة للحب بوصفه ظاهرة إنسانية تستحق التأمل والدراسة.

وقد خلصت هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

١- تميّز كتاب «طوق الحمامة» بوصفه وثيقة فكرية وأدبية فريدة في التراث الأندلسي، جمعت بين التجربة الذاتية والتحليل النفسي والاجتماعي للحب، بعيدًا عن المجاز المفرط أو الخطاب العاطفي المجرد.

٢- الحب عند ابن حزم ليس انفعالًا عابرًا، بل عاطفة إنسانية نبيلة ذات بعد أخلاقي وروحي، ترتبط بقيم العفّة والوفاء والتعفف، ما يندرج ضمن ما يعرف بـ"الحب العذري".

٣- النشأة الشخصية لابن حزم، في بيئة يغلب عليها الحضور النسوي، أثّرت في تكوين وجدانه وتقديره للعنصر العاطفي في الحياة، وهو ما انعكس في لغته الشاعرية وأسلوبه الحسي.

٤- التكوين الفقهي والفكري للمؤلف جعله يربط الحب بالمبادئ الشرعية، من خلال حضور نصوص قرآنية وأحاديث نبوية وتوظيف مواقف الصحابة والزهّاد لإضفاء الشرعية على هذه العاطفة.

٥- تعدّ رسالة «طوق الحمامة» أوّل معالجة عربية منهجية للحب، تمتاز بتقسيم دقيق لمراحل الحب وتجلياته، مما يمنحها طابعًا تأصيليًا في "علم نفس الحب" ضمن التراث الإسلامي.

٦- تمثّل الرسالة نقدًا غير مباشر للواقع الاجتماعي والسياسي في الأندلس، حيث ترصد تناقضات المجتمع بين الفضيلة والانحلال، والصدق والزيف، والمحبة والمصلحة.

٧- انفرد ابن حزم بتأكيده على الخصوصية الأندلسية للحب والتجربة العاطفية، رافضًا تقليد الأدب المشرقي، ومصرًّا على تصوير الذوق الأندلسي بأسلوب واقعي وتحليلي.

٨- جمع الكتاب بين النثر الفني والشعر الشخصي، مما جعله أقرب إلى السيرة العاطفية الذاتية، ومصدرًا أدبيًا وتاريخيًا لفهم مشاعر الأندلسيين وسلوكياتهم في العلاقات العاطفية.

٩- أسهم الكتاب في التأثير على الأدب الأوروبي، خاصة فيما يعرف بـ"الحب الفروسي" في القرن الثاني عشر الميلادي، مما يدل على عالمية رسالته رغم طابعها الإسلامي.

١٠- يظل «طوق الحمامة» شاهدًا على التوازن الفريد بين العقل والعاطفة، والدين والحياة، مما يجعله مرجعًا خالدًا في أدبيات الحب وأخلاقياته في الحضارة الإسلامية.

---

[12] ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م، صـ ٩٨.

[13] نفس المرجع، صـــ ١٦٧